محنة الاختيار بين المال والأطفال

من سورة الكهف « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا » صدق الله العظيم.

والسلام على من اتبع الهدى فلا حور أو بدل في هذا القول الفصل ولا رجحّ كفة على أخرى في ميزان العدالة الذي وقف شامخا أمام كل رياح التغيير التي هبت على مدى العصور.

لذلك لم تكن هنالك مشكلة في التوفيق بين جمع المال ورعاية الأطفال بل أن من ملك مال قارون وابتلي بالعقم عانى من المرض النفسي معاناة المحروم من المال ومن أنعم الله عليه بالأطفال وحرمة المال عانى من المرض النفسي معاناة المحروم من الأطفال ولعل العظمة الكبرى تكمن في امتحان المخلوق أما بقلة المال أو عدم الأطفال فكان خاسرا في الحالتين الا من آمن وأتى ربه بقلب سليم...

ومن صورة الاعجاز أن يستوى الغني العقيم والعائل الفقير في المعاناة من المرض النفسي كالشعور بالحزن والاحساس بالكآبة وفقدان اللذة للحياة فالأول يبحث عن طفل يحمل اسمه والثاني يبحث عن مال يكفيه ذل السؤال، ومن ممارستنا اليومية في مجال العلاج النفسي كثيرا ما تجتمع الاضداد وتلتقي النقائض في دوام اليوم الواحد والمصائب تجمعن المصابين فالعقيم يسأل الله أن يأخذ ماله ويعطيه طفلا يشبع غريزة الأبوة والفقير يتضرع اليه طالبا المال قبل العيال... وما بدلوا تبديلا...

فالمال نعمة... والأطفال نعمة... ومن يرفض النعمة جاحد... ومن يغالي في طلب النعمتين طامع... وهل الانسان الا طامع في المزيد أو جاحدّ للعديد ولا هم بأرزاقهم قانعون.

فقد وجدت من الأغنياء من يتردد على الأطباء ينفق كل ثروته بحثا عن الذرية وعرفت من الفقراء من يتردد على الأطباء يبذل جهد طاقته التي بددها الفقر والفاقة في تربية الأطفال رغم تباين الأدوار... وتفاوت الأقدار... وتقدرون فتضحك الأقدار.

وقد وصلنا الى عصر المادة فطغى حب المال على كل شيء... وغطى على كل فضيلة وكم من قائل « جئت امتلك المال فامتلكني المال » والناس في سباق محموم في بورصة الحياة المادية يطففون الكيل والميزان ويكنزون الذهب والفضة... فازداد الغني غنى والفقير فقرا... فاختل الميزان الذي حكم حركة كل شيء بفعل الأنسان وتجاوز الناس سياق الآية الكريمة وكأنما في عيونهم غشاوة... فالغني انشغل عن أطفاله في جمع الثروة والفقير ترك عياله بحثا عن المال حتى تلاحقت الأكتاف في الصعود الى الذري لقطف ثمار الشجرة المحرمة.

واتسعت الهوة وكبر الفارق بين المال والأطفال وحدثت محنة الاختيار عندما طغى حب المال على رعاية الأطفال فلم يعد العقيم يبحث عن الأطفال لأن لديه من المشاغل والبحث عن الوسائل وموازنة البدائل لجمع المال ما يلهيه عن مراعاة طفل واحد وأصبح الفقير يمتطي صهوة الطموح المدمر في استكشاف منابع الرزق... فيحفر الأرض بأسنانه وينحت الجبل بأظافره ويعصر قلبه حتى آخر قطرة ليجمع المال... والأطفال لهم رب يحميهم ولكن أهلهم عن ذكر ربهم غافلون.

فكأن انسان اليوم يعيش محنة الاختيار بين المال والأطفال المحنة من صنع يده... ونبات فكرة... وجموح شهوته...

ان هذه الصورة القائمة هي الواقع المؤلم... مهما أبدعنا في الطلاء...

واستحدثنا المساحيق... وابدعنا في الديكور... والذين يعيشون هذه المحنة أو يعاصرون بعض ظروفها أو يشاركون في صنع الحل يعلمون أن محنة المجتمعات الحديثة تكمن في عدم الرغبة في الوقوف لحظات في مفترق الطريق الذي وصلنا اليه... المفترق الذي يحمل مؤشرات تحثنا على تغيير اتجاهاتنا في السير في الطريق المسدود.

ولكن عنصر المغامرة الذي اقتحم قلب كل فرد يدفعه الى تحدي لافتات المرور حتى ان كان يعلم سلفا أنه قد يتعرض لحادث يؤدي بحياته وأطفاله... وليس بالضرورة أن يكون الحادث تصادم سيارتين... فاخطر الحوادث انفصال الطرفين الأب والأم وهذه قمة المأساة التي يعاني منها المجتمع... الأب الغائب نفسيا رغم وجوده داخل البيت... والأم المقهورة عاطفيا بين الفراغ النفسي والوجود المادي والأطفال المحرومون كليا من أبسط حاجيات الرعاية الأسرية.

لقد سألت أكثر من أب... وناقشت أكثر من مجلس وتدخلت في أكثر من موقف يجادلني الأب بأنه يحترق من أجل أبنائه لتأمين مستقبلهم فلا يستطيع مقابلة الناظر أو حضور مجلس الآباء أو مراجعة الطبيب أو أخذ الأطفال في رحلة سياحية ويعتقد عن قناعة ان ما يفعله عين الصواب وما يقال له مجرد ترف ذهني وفراغ فكري يعاني منه هواة جمع الطوابع لملء الفراغ المهني في بعض مواقع العمل.

ولو سألنا، لمن تقرع الأجراس... أو تساءلنا لمن تجمع الأموال، يكون الجواب المنطقي بداهة... من أجل الأطفال واذا أردنا أن يكون أكثر دقة في تحديد متطلبات الأطفال لوجدنا المال ليس من أولوية احتياجاتهم فالغرف الجميلة المزودة بالملابس لا توفر كل الاستقرار النفسي للطفل بل لا تمثل بديلا واحدا لوجود الأب في المنزل في صورته المتعددة ولا يكفي لحظة واحدة عن حنان الأم المستقرة نفسيا بتوفر الطمأنينة الزوجية داخل محيط الأسرة.

ان الأطفال ثروة قومية للدول في كل بلاد العالم... وعائد مضمون

للأسرة منذ فجر التاريخ رغم تبديل المعايير وحدوث التغيير في فكر الفرد المادي فقد تنضب الثروة مهما ارتفع رصيدها وتنوع مصدر دخلها ولكن العائد المضمون في الادخار الوحيد في بنك الحياة والذي لا يخضع لتقلبات السوق أو ذبذبة البورصة المالية هو الطفل.

ان طفلا واحدا يشب محروما من عطف الوالدين فاقدا الاستقرار النفسي يستطيع أن يبدد في أحد نزواته ما جمعه أبوه طيلة حياته... وان طفلا واحدا يشب مشبعا بالأمن النفسي مزودا بالغذاء الروحي من والديه يستطيع أن يضيف الى جهدهم أضعاف ما فشلوا في الحصول عليه... وفي الحياة شواهد صدق على كلا النقيضين من انماط السلوك.

اذن اذا بذلنا بعض جهدنا الذي نغامر به في عقد الصفقات في تنظيم الأوقات بين ضرورة المال ورعاية الأطفال لوجدنا في معدل الربح والخسارة اننا نستطيع أن نؤمن الثروات التي نسعى لها منذ فجر طفولتنا حتى غروب كهولتنا عندما نترك الأمانة في يد من أحسنا اعداده للحفاظ عليها.

واذا كان جمع المال وكثرة الثروة أحد مظاهر التفاخر... الا يكون التفاخر بأطفالنا أكرم من التفاخر بأموالنا.

مجرد سؤال أرجو من كل أب محاولة البحث عن اجابة عليه... وللحديث صلة...